مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد الخامس والعشرون - المجلد التاسع - التاريخ - تموز 2025 م
doi.org/10.52866/esj.2025.09.25.06

اجتياح المغول للعالم الإسلامي
من خلال كتاب البداية والنهاية لابن كثير(ت: 774هـ)

م. م. أطياف رفعت أكرم // مركز البحوث والدراسات الاسلامية (مبدأ)
atyaf-rofat@aliraqia.edu.iq

مستخلص:

يُعدّ اجتياح المغول للعالم الإسلامي في القرن السابع الهجري من أكثر الفصول دموية وتأثيرًا في التاريخ الإسلامي، وقد خلّف آثارًا حضارية، ودينية، وسياسية عميقة. وقد وثّق المؤرخ الكبير ابن كثير الدمشقي (ت: 774هـ) في كتابه الشهير «البداية والنهاية» تفاصيل هذا الاجتياح، موفّرًا شهادة تاريخية مهمّة وموقفًا تحليليًا من تلك الأحداث

شهد العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري إحدى أعظم الكوارث التاريخية حين اجتاحت جحافل المغول الممالك الإسلامية شرقًا وغربًا، فدمرت المدن، وأسقطت الدول، وأراقت الدماء، في مشهدٍ دموي قلَّ نظيره في التاريخ ، وقد كان سقوط بغداد سنة 656هـ/ 1258م ، على يد هولاكو أبرز تلك الأحداث ونهاية فعلية للعصر العباسي في بغداد

وفي هذا السياق المضطرب، برزت أهمية ما سجله المؤرخون المسلمون من وصف وتحليل لتلك الفاجعة ، ويُعدّ المؤرخ ابن كثير الدمشقي (ت: 774هـ) من أبرز من تناولوا تلك الحقبة في كتابه الشهير (البداية والنهاية) وهو موسوعة تاريخية ينتفع بها طلاب العلم في كل زمان، إذ تضمن التأريخ للعالم الإسلامي، وابتدأه بتاريخ البشرية منذ خلق آدم عليه السلام وانتهاءً بعصره ، وتحديدًا إلى عام 768هـ / 1366م .

الكلمات المفتاحية: المغول ، ابن كثير ، كتاب البداية والنهاية .

The Mongol invasion of the Islamic world through the book "The Beginning and the End" by Ibn Kathir (d. 774 AH)

Assistant Professor Researcher Atyaf Rafat Akram
Researchers & Islamic Studies Center (MABDAA)

Abstract :

The Mongol invasion of the Islamic world in the seventh century AH is considered one of the bloodiest and most influential chapters in Islamic history, leaving profound cultural, religious, and political impacts. The great historian Ibn Kathir al-Dimashqi (d. 774 AH) documented the details of this invasion in his famous book, "Al-Bidayah wa al-Nihayah," providing important historical testimony and an analytical perspective on those events. In the seventh century AH, the Islamic world witnessed one of the greatest historical catastrophes when the Mongol hordes swept across the Islamic kingdoms east and west, destroying cities, toppling states, and shedding blood, in a bloody scene unparalleled in history. The fall of Baghdad in 656 AH/1258 AD at the hands of Hulagu was the most prominent of these events and effectively marked the end of the Abbasid era in Baghdad. In this turbulent context, the importance of the descriptions and analysis recorded by Muslim historians of that tragedy emerged. The historian Ibn Kathir al-Dimashqi (d. 774 AH) is considered one of the most prominent scholars who addressed that era in his famous book, "Al-Bidayah wa al-Nihayah." It is a historical encyclopedia that will benefit students of knowledge at all times, as it includes a history of the Islamic world, beginning with the history of humanity since the 12th century. The creation of Adam, peace be upon him, and the end of his era, specifically until the year 768 AH / 1366 AD.

Keywords: Mongols, Ibn Kathir, The Beginning and the End.

اولاً : ابن كثير (ت 774هـ / 1372م)

اسمه ، وولادته :

اسمه : وهو عماد الدين[1] إسماعيل بن عمر[2] شِهَابُ الدِّينِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ كَثِيرٍ الْقُرَشِيُّ[3] المصري الشَّافِعِيُّ[4] الدمشقي[5]، وقد ذكر ابن كثير أنه ينتسب إلى نسب عظيم في قوله مانصه «**وَقَفَ عَلَى بَعْضِهَا شَيْخُنَا الْمِزِّيُّ فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ وَابْتَهَجَ بِهِ، فَصَارَ يَكْتُبُ فِي نَسَبِي بِسَبَبِ ذَلِكَ: الْقُرَشِيُّ**»[6]، ولد ابن كثير بقرية مجيدل شرقي بصرى[7] من أعمال دمشق عام 701 هـ ، حيث إن ابن كثير نفسه بين ذلك ، حيث قال : توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة 703هـ بقرية مجيدل شرقي بصرى، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون وكنت إذ ذاك صغيراً إبن ثلاث سنين أو نحوها لا أدركه إلا كالحلم[8] .

وان سبب تسميته بـ (**إسماعيل**) : ذكر ابن كثير أن أباه قد سماه (إسماعيل) على اسم أخيه من أبيه، وذلك بسبب وفاة أخيه الأكبر هذا ، حيث سقط من سطح المدرسة الشامية ، فحزن والده ووجد عليه كثيراً ، بل ورثاء بأبيات كثيرة، فلما ولد الإمام ابن كثير سماه باسم أخيه الأكبر (إسماعيل)[9] .

ذكر ابن كثير بنفسه في كتابه البداية والنهاية عند سرده حوادث عام 701 هـ / 1301م ، بأنه ولد في هذا العام وأكد ذلك في قوله : «فيها ولد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي الشافعي عفا الله عنه...[10]، وعاني من اليتم منذ نعومة أظفاره إذ توفي والده و هو في الثالثة من عمره[11]، وقد أشاد ابن كثير برعاية أخيه له

---

(1) الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت : 748 هـ) : تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية، (بيروت-لبنان، 1998م)، ج4، 201.

(2) ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: 774 هـ) : البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1988م، ج14، ص 25.

(3) ابن كثير : البداية والنهاية، ج14، ص 37 .

(4) ابن كثير : البداية والنهاية، ج14، ص 25 ؛ الحسيني: شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي (ت: 765 هـ): ذيل تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1998م ، ص 38 ؛ والبصري : نسبة إلى مدينة بصرى الشامية : للمزيد : ينظر : عبد الواحد: مصطفى، مقدمة تحقيق السيرة النبوية لابن كثير، دار المعرفة، بيروت: ، 1976م، ج 1، ص 4؛ والشافعي، لأنه ينتسب الى المذهب الشافعي و حافظ لكتاب التنبيه للشيخ أبي إسحاق الشيرازي (ت: 476هـ / 1083م)، والذي يعد أشهر مختصر عند الشافعية قديما للمزيد : ينظر : ابن العماد الحنبلي : عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت: 1089 هـ): شذرات الذهب ، تحقيق : محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1986م ، ج 8، ص 397.

(5) لأنه ولد ونشأ في دمشق و قراها : للمزيد : ينظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 1 ، ص 67 ؛ كحالة : عمر رضا ، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت ، ج 2، ص 283.

(6) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 14 ، ص 36.

(7) هي إحدى القرى التابعة لمدينة بصرى في دمشق ومن أعمالها، و تقع على الطريق الآخذ من بعلبك إلى وادي التيم، ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: 626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995م : ج 1، ص 411.

(8) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 14 ، ص 37.

(9) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 14 ، ص 37.

(10) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 14 ، ص 25 .

(11) ابن حجر العسقلاني : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت : 852): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد عبد المعيد خان ، مجلس دائرة المعارف ،

وعنايته به فوصفه بالشقيق والشفيق بقوله : « ... كانت وفاة الوالد في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة... و كنت إذ ذاك صغيراً أبن ثلاث سنين أو نحوها لا أدركه إلا كالحلم ... ثم تحولنا من بعده ... إلى دمشق صحبة الأخ كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً ، و بنا رفيقاً شفوقاً ...[1]، أما صفاته الخلقية فقد ذكرها المقريزي بقوله : «كان حسن الأخلاق ، جميل المعاشرة ، متواضعاً ، كثير الاستحضار[2] .

ثانياً : التعريف بوالدي ابن كثير:

ومن الجدير ذكره أن ابن كثير قد ترجم **لوالده**، وهو الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي من بني حصله ، ولد في قرية يقال لها يُقَالُ لَهَا الشَّرْكُوِينُ غَرْبِيَّ بُصْرَى، عام 640هـ ، وقد تزوج من زوجتين ، فولد له من الأولى إسماعيل ثم يونس وادريس، ومن الثانية عبد الوهاب وعبد العزيز ومحمد وأخوات عدة ثم ابن كثير وهو أصغرهم ، وتوفي والده في شهر جمادى الأولى سنة (703هـ) في قرية مجيدل ، ودفن بمقبرتها الشمالية[3] .

والدة ابن كثير: وهي مريم بنت فرج بن علي، ولدت عام (673 هـ)، في قرية مجدل التي كان يخطب بها والده، وتوفيت سنة (728 هـ)، ودفنت بمقبرة الصوفية ، وقد ترجم ابن كثير لامه[4].

ثالثاً: وفاته :

توفى الحافظ عماد الدين ابن كثير ، يوم الخميس السادس عشر من شعبان بدمشق سنة (774 هـ)، وقد كف بصره في آخر حياته ودفن بعشيرة الصوفية عند شيخه ابن تبعية[5] .

رابعاً: تربيته العلمية :

تتلمذ ابن كثير على أيدي مجموعة من العلماء والشيوخ فتفقه أولاً بالشيخ برهان الدين ابراهيم (ت: 729 هـ / 1328م)[6]، فقد تتلمذ ابن كثير على يد نخبة من كبار علماء عصره، من أبرزهم الشيخ كمال الدين الزملكاني (ت :667هـ/ 1229م)[7]، والذي كان يُعد من أعلام الشافعية في بلاد الشام، وكذلك الشيخ جمال الدين أبو الحجاج المزي (ت 742هـ/ 1341م)[8]، كما نهل من علم تقي الدين ابن تيمية (ت 728هـ/ 1327م) [9] .

وارتبط به بعلاقة وثيقة، إذ لازمه طويلاً وتأثر بأفكاره وآرائه، حتى قال فيه مؤلف، شذرات الذهب : كان له خصوصية بابن تيمية ، واتباع له في

حيدر آباد ، الهند، 1972م ، ج 1 ، ص 446-445.

(1) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 14 ، ص 37 .

(2) المقريزي : أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت : 845هـ): درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1995م ، ج 2، ص 236.

(3) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 14 ، ص 36 .

(4) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 13 ، ص 164.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج1، ص 446.

(6) الذهبي: معجم الشيوخ الكبير، تحقيق : محمد الحبيب الهيئة، مكتبة الصديق، الطائف، 1988م، ج 1، ص 30.

(7) ابن كثير ، البداية والنهاية، ج14 ، ص 338.

(8) الداوودي: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت: 945هـ): طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج 1، ص 418 .

(9) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج 1 ، ص -399 400.

كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق[1].

كما تلقى العلم أيضاً على يد الحافظ شمس الدين الذهبي (ت: 748هـ/ 1347م)[2]، وتولى بعده مشيخة دار الحديث أم الصالح» والتنكزية بعده[3].

أما في مجال التدريس، فقد قام ابن كثير بإلقاء الدروس في الجامع الأموي بدمشق، وعدد من المساجد الدمشقية، والمدرسة النورية[4].

وتميّز بمنهجه التفسيري الذي اعتمد فيه على تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالحديث الشريف وآثار الصحابة، وابتعد فيه عن الروايات الإسرائيلية والتأويلات الفلسفية أو الزج بالرأي المجرد، مما جعله أحد أعلام التفسير في عصره[5]، نال ابن كثير ثناءً واسعاً من علماء عصره، فقد قال عنه الإمام الذهبي: هو فقيه متقن، ومحدث محقق، ومفسر نقاد، وله تصانيف مفيدة»[6].

كما أثنى عليه ابن حجر العسقلاني بقوله: «**اشتغل بالحديث، مطالعةً في متونه ورجاله، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، وانتُفع به بعد وفاته**»[7]، وذكره ابن العماد الحنبلي قائلاً: «**كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم**»[8].

خامساً : عصر ابن كثير:

عاش ابن كثير الدمشقي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، إذ وُلد في عام 701هـ / 1301م، وذلك خلال عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (693 – 741هـ / 1293 – 1341م) وكانت بلاد الشام في تلك الحقبة لا تزال تتأثر بتبعات الحملات الصليبية التي استهدفت العالم الإسلامي منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وقد تسلّم المماليك حكم مصر والشام عقب الأيوبيين، فكان لزاماً عليهم التصدي لهجمات المغول الزاحفين من الشرق، ومواصلة الجهود العسكرية لتحرير الشام من فلول الصليبيين الساعين إلى إعادة بسط نفوذهم فيها[9].

(1) ابن العماد الحنبلي : ج 8 ، ص 399 .

(2) الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت: 764هـ): فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، 1973م، ج 3، ص 315 .

(3) الحسيني : ذيل تذكرة الحفاظ ، ص 38 ؛ عبد الواحد : مقدمة تحقيق السيرة النبوية لابن كثير، ص 5.

(4) المدرسة النورية : أشهر المدارس التي بناها السلطان نور الدين زنكي (ت: 569هـ/ 1174م) : عام (567هـ/ 1171م)، وتقع في منطقة الخواصين بدمشق، وقد جدد بناءها على يد قاضي قضاة المالكية هناك في عام 687 هـ؛ للمزيد : ينظر : ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 315 ؛ الدمشقي: عبد القادر بن محمد النعيمي (ت: 927هـ): الدارس في أخبار المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م ، ص 8474 .

(5) عبد الواحد: مقدمة تحقيق المسيرة النبوية ، ص 7 .

(6) الحسيني: ذيل تذكرة الحفاظ، ص 38 ؛ السيوطي: جلال الدين أبو الفضل، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: 911 هـ) : ذيل طبقات الحفاظ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 239.

(7) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج 1، ص 445.

(8) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج 1، ص 67.

(9) للمزيد: ينظر: ابو قمر: أحسان عبدالقادر : ابن كثير ومنهجه في كتاب البداية والنهاية: مجلة مؤتة للدراسات الإنسانية والاجتماعية ، المجلد الثامن والثلاثون، العدد الثالث، 2023م، ص87.

سادساً: تقسيم كتاب ابن كثير البداية والنهاية :

يُعدّ كتاب «البداية والنهاية» من أبرز المؤلفات التي أضافها الإمام ابن كثير الدمشقي إلى رصيد المكتبة العربية والإسلامية، يتناول هذا الكتاب الموسوعي تسلسل الأحداث التاريخية منذ خلق الكون وحتى زمن المؤلف، أي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وقد جاءت مادة الكتاب موزعة على أربعة عشر جزءاً، جُمعت في سبعة مجلدات بحسب الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة، وهي طبعة دار الكتب العلمية، حيث يحتوي كل مجلد على جزأين، كما أُضيف مجلد خاص للفهارس ليسهل على القارئ والباحث الوصول إلى المعلومات، فيقول في مقدمة كتابه: «**فهذا كتاب أَذْكُرُ فِيهِ بِعَوْنِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ مَا يَسَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ مِنْ ذِكْرِ مبدأ المخلوقات: من خلق العرش والكرسي والسموات، وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجَانِّ وَالشَّيَاطِينِ، وَكَيْفِيَّةِ خَلْقِ آدَمَ عليه السلام، وَقَصَصِ النَّبِيِّينَ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ إِلَى أَيَّامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ النُّبُوَّةُ إِلَى أَيَّامِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وسلامه عليه**»[1] .

ويتمثل القسم الأول لكتابه في عرضه لمرحلة البدايات الكونية، حيث يستعرض فيه المؤلف مسائل تتعلق بخلق العرش، والكرسي، واللوح المحفوظ، إضافة إلى خلق السماوات والأرض، وظهور الملائكة، وخلق الجنّ والشياطين، ثم ينتقل إلى الحديث عن بداية خلق الإنسان، متناولاً قصة آدم عليه السلام باعتباره أول البشر[2] .

أما القسم الثاني من الكتاب، فيتناول المرحلة التاريخية الممتدة من خلق آدم عليه السلام وحتى بداية البعثة المحمدية، ويتضمن هذا الجزء سردًا مفصلًا لقصص الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله إلى مختلف الأقوام والأمم، مع تسليط الضوء على تفاعل الشعوب مع دعواتهم، سواء بالتصديق أو التكذيب. كما يعرض ملامح الحياة في عصر الجاهلية، ممهداً بذلك للمرحلة التي سبقت بزوغ نور الإسلام[3] .

أما القسم الثالث من الكتاب، فيُعنى برصد التاريخ الإسلامي ابتداءً من بزوغ الدعوة الإسلامية على يد النبي محمد ﷺ، مرورًا بمختلف المراحل السياسية والدينية التي شهدها العالم الإسلامي حتى زمن المؤلف ابن كثير في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وتحديدًا إلى عام 768هـ / 1366م

يستهل هذا القسم بسرد سيرة النبي محمد ﷺ، مستعرضًا مراحل الدعوة، واستقبال الوفود العربية التي قدمت إلى المدينة المنورة لإعلان إسلامها، إلى جانب تسليط الضوء على أحداث حجة الوداع، ووفاة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وفي الأجزاء اللاحقة، يتناول المؤلف تطور الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ، مبتدئًا بمرحلة حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم الفتوحات الإسلامية، وامتداد رقعة الدولة خلال عهد الدولة الاموية شرقًا وغربًا.

ثم ينتقل إلى تاريخ الخلافة العباسية، موضحًا الجهود التي بذلها عدد من خلفائها في تعزيز قوة الدولة وهيبتها، مثل هارون الرشيد الذي أجبر الدولة البيزنطية على دفع الجزية، وحصّن الثغور، والمعتصم الذي استجاب لنداء الاستغاثة وتوجه نحو عمورية للجهاد.

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج 1، ص 6.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج 1، ص 6 –ص 74.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية: ج 1، ص 74 – ج2، ص309.

ويستمر ابن كثير في تأريخ الحوادث السياسية والعسكرية والاجتماعية للدول الإسلامية، معتمدًا منهجًا سنويًا في ترتيب الأحداث، وصولًا إلى سنة 767هـ / 1365م، أي قبل وفاته بقليل [1].

ويختتم ابن كثير كتابه «البداية والنهاية» بتوثيق أحداث السنة الأخيرة التي تناولها في تأريخه، وهي سنة 767هـ / 1365م، والتي تُعد نهاية السرد التاريخي في هذا المصنّف الضخم. وقد ختم هذا الجزء بذكر حادثة مقتل الأمير يلبغا اليحياوي في مصر، والتي وقعت في شهر ربيع الأول من نفس السنة، لتكون هذه الحادثة آخر ما سجّله في هذا السفر التاريخي قبل توقفه عن مواصلة التأريخ[2]

رغم أن ابن كثير لم يُفصح في مقدمة كتابه البداية والنهاية عن سبب اختياره لهذا العنوان، إلا أن مضمون الكتاب يُوضح المقصد من هذه التسمية. فقد تناول في موسوعته التاريخية نشأة الحياة منذ الخلق، مرورًا بتاريخ الأنبياء والأمم، ثم أحداث التاريخ الإسلامي وصولًا إلى عصره، وانتهى بالحديث عن مشاهد يوم القيامة، ويظهر ذلك جليًا في قوله ضمن مقدمة الكتاب: «... **ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة**، ثم صفة ذلك وما يقع فيه من الأمور الهائلة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة، وغير ذلك وما يتعلق به...». ويتّضح من هذا العرض الشامل أن العنوان يعكس طبيعة المادة التي تناولها المؤلف؛ فهو يبدأ بتاريخ الخليقة وينتهي بأوصاف اليوم الآخر، مما يجعل عنوان البداية والنهاية ملائمًا لمضمونه بشقيه الزمني والديني[3].

لم يُصرّح ابن كثير في مقدمة كتابه البداية والنهاية بسببٍ مباشر دفعه إلى تأليف هذا المصنّف الضخم، إلا أن مضمونه يُشير إلى تعدد الدوافع التي كانت وراء تأليفه، والتي لم تقتصر على البواعث الدينية والدنيوية فحسب، كمعرفة نشأة الكون وسيرة النبي محمد ﷺ – بل شملت أيضًا أهدافًا ثقافية وعلمية، ويبدو أن ابن كثير أراد من خلال هذا العمل أن يُقدّم للقارئ موسوعة شاملة تجمع بين العقيدة والتاريخ، وتعرض تسلسل الوقائع والأحداث منذ خلق العرش وحتى عصره، ليستفيد منها المسلم في دنياه وآخرته، وتتضح هذه المقاصد من قوله: «**أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم**». كما أشار في مقدمة كتابه إلى أن الله تعالى قصّ على نبيه محمد ﷺ أخبار الخلق وأحوال الأمم السابقة، فقال: «**وقد قص الله على نبيه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات... وكيف فعل بأوليائه وماذا أحل بأعدائه**»، مؤكّدًا ذلك بآية القرآن الكريم: كذلك (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا) [4]، ومن هنا، يتّضح أن غاية المؤلف كانت تتجاوز التوثيق التاريخي، لتكون تذكيرًا وتعلّمًا وعبرة للمؤمنين من خلال استعراض سنن الله في خلقه وأحكامه في الأمم الغابر[5].

سابعاً: منهج ابن كثير البداية والنهاية :

نهج ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) من تاريخه أنه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم رتب الحوادث على السنن ، فكان يذكر حادثة كل

(1) ابن كثير: البداية والنهاية: ج2، ص309 – ج14، 357.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج14، ص368.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج1، ص 10.
(4) سورة طه : الآية 99.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج1، ص 12–10.

سنة بمفردها، وقد نهج ابن كثير منهجاً جديداً لم يكن يهتم به أحد من قبله إذ أنه مزج الأخبار بروايات الأحاديث ، وبذا قد يكون وضع أمام المطالع لكتابه مادة وافية تمكنه من الدراسة والإحاطة والاستنباط، والذي ساعد ابن كثير على هذا عصره المتأخر وحفظه للأحاديث وإجادته للروايات والأخبار

وان المنهج التاريخي الذي اعتمده في عرض هيكلية مؤلفه فهو المنهج الحولي، أي ترتيب الحوادث حسب تسلسل السنين، إذ كان في بداية كل عام يقول : ثم بدأت سنة كذا ويذكر أحداثها المهمة، سواء ما كان يتعلق بالدولة أو الوقائع التاريخية الداخلية والخارجية ، ثم يذكر الحروب ، والأوبئة، والمجاعات إن وجدت في هذا العام أو ذاك ، ثم يتبع كل ذلك ذكر الوفيات في ذاك العام بإيجاز واختصار سواء كانت تلك الوفيات من الخلفاء أو الأمراء أو من العلماء والشيوخ الأعلام وغيرهم ، حتى يصل إلى نهاية حوادث عام 768 هـ / 1367م [1] .

وهو بهذا سار على نهج المؤرخين السابقين أمثال الطبري (ت 310 هـ / 922م) في كتابه تاريخ الرسل والملوك ، و ابن الأثير (ت 630 هـ / 1232م) في كتابه الكامل في التاريخ [2]، هذا فضلاً عن انه اتبع في كل قسم من أقسام كتابه منهج معين ، وترتيب في المؤرخين السابقين الذين استقى منهم مواده ، ففي ذكر حوادث تاريخ القرون الأولى نراه تأثر بالطبري، و ابن عساكر (ت 571هـ / 1175م)، وابن الجوزي (ت 597هـ / 1200م) فأتخذهم مثالاً له و انموذجاً سار عليه [3] .

أما فيما يخص الأحداث التي عاصرها ابن كثير، فقد اعتمد في تسجيلها على ما شاهده بعينه، وما سمعه بأذنه، وما اطلع عليه من مصادر متنوعة، شملت الوثائق الرسمية، والمصادر الشخصية، إلى جانب ما تلقاه من أخبار مشافهة[4]، ومن الجدير بالذكر أن الطابع الحديثي كان غالبًا على كتابه منذ بدايته وحتى نهاية السيرة النبوية؛ إذ التزم منهج الرواية المسندة، وبذل جهدًا كبيرًا في التحقق من الأخبار، وتمحيص الروايات، ونقدها نقدًا علميًا دقيقًا[5] .

اتبع ابن كثير منهجًا موسوعيًا في مؤلفه، إذ جمع بين منهج الرواية التاريخية والتفسير القرآني، فدمج بين العلوم النقلية والتاريخية في إطار واحد، مما أضفى على عمله طابعًا شاملًا ومتكاملًا ويُقدِّم ابن كثير في كتابه تراجم للخلفاء والأمراء والعلماء والملوك والأعيان، مُرتبة بحسب سنوات وفاتهم، وذلك بعد أن يستعرض أبرز الأحداث والوقائع التي شهدتها كل سنة من تلك السنين [6] .

كان ابن كثير أحيانًا ينقل من كتب ، كان اصحابها بدورهم ناقلين عن مؤرخين أو كُتّاب سابقين، ومن ذلك ما أخذه عن اليونيني (ت : 726 هـ) حين قال: **وَحَكَى ابْنُ خَلِّكَانَ فِيمَا نَقَلَ مِنْ خَطِّ الشَّيْخِ قُطْبِ الدِّينِ اليونيني قال: بلغنا أَنَّ رجلاً يدعى أبا سَلَامَةَ** «[7]، وكذلك ما نقله عن ذكره **ابْنُ السَّاعِي عَنْ يَاقُوتٍ الْحَمَوِيِّ عَنِ ابْنٍ لفخر الدين عنه ،**

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ح14، ص 339.
(2) العزاوي : عبد الرحمن حسين، التاريخ والمؤرخون، بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1993م، ص 132-131 .
(3) ابن كثير : البداية والنهاية: ج1، ص 102، ص112، ص 234.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ح14، ص 105، ص 169، ص 190.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج1، ص 6 .
(6) ابن كثير : البداية والنهاية : ج1، ص 6.
(7) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص289.

وذكر أبياتًا من الشعر ضمن ذلك النقل [1].

ثامناً : مصادر ابن كثير :

استقى ابن كثير مادته التاريخية من عدة مصادر رئيسية، تمثلت في:

1. **القرآن الكريم**: وخاصة في الجزء الأول من كتابه، حيث تناول فيه بدء الخليقة، فبدأ بخلق السموات والأرض، والكرسي، والعرش، ثم خلق آدم عليه السلام، وما تلا ذلك من أحداث.

2. **السنة النبوية الشريفة**: فقد اعتمد على أقوال النبي محمد ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين، مستخرجًا مادته من كتب الصحاح، والمسانيد، والمصنفات، وكتب السير والمغازي.

3. **أقوال العلماء الأجلاء الموثوق بعلمهم**: نقل عنهم ما أجمعت عليه الأمة وارتضاه العلماء الثقات.

وقد أشار ابن كثير إلى منهجه في التوثيق بقوله: **«ما ورد في ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ والسُّنة وَالْآثَارِ وَالْأَخْبَارِ الْمَنْقُولَةِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، الْآخِذِينَ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ الْمُصْطَفَوِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَام وَلَسْنَا نَذْكُرُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ إِلَّا مَا أَذِنَ الشَّارِعُ فِي نَقْلِهِ مِمَّا لَا يُخَالِفُ كِتَابَ اللهِ، وسنَّة رَسُولِهِ ﷺ وَهُوَ الْقِسْمُ الَّذِي لَا يُصَدَّقُ وَلَا يُكَذَّبُ، مِمَّا فِيهِ بَسْطٌ لِمُخْتَصَرٍ عِنْدَنَا، أَوْ تَسْمِيَةٌ لِمُبْهَمٍ وَرَدَ بِهِ شَرْعُنَا مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ لَنَا فَنَذْكُرُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّحَلِّي بِهِ لَا عَلَى سَبِيلِ الِاحْتِيَاجِ إِلَيْهِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا الِاعْتِمَادُ وَالِاسْتِنَادُ عَلَى كِتَابِ اللهِ وسنَّة رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا صَحَّ نَقْلُهُ أَوْ حَسُنَ وَمَا كَانَ فِيهِ ضَعْفٌ نبيِّنه، وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ»**[2].

كان ابن كثير في كتابه البداية والنهاية يستشهد أحيانًا بأشعار أو قصائد ينسبها إلى قائليها، فيُصرّح بمصدرها، بينما في أحيان أخرى يورد الأشعار دون الإشارة إلى مصدرها أو الجهة التي نقل عنها، وأن غالبية هذه الأشعار التي لم يُحدد مصدرها قد نقلها عن المؤرخ ابن الساعي، الذي يُعد من المصادر التي اعتمد عليها ابن كثير في كتابه كقوله مانصه: **« ذكره ابن الساعي في تاريخه: وصال الغواني كان أورى وأرجا * وَعَصْرُ التَّدَانِي كَانَ أَبْهَى وَأَبْهَجَا لَيَالِيَ كَانَ الْعُمْرُ أَحْسَنَ شافعٍ»**[3].

تاسعاً: ظهور المغول في التاريخ الإسلامي كما رواه ابن كثير في كتابه البداية والنهاية :

برزت على الساحة العالمية في النصف الأول من القرن السابع الهجري، قوة جديدة قلبت موازين القوى السائدة، وأعادت رسم خارطة العالم، فارضة وجودها كقوة مؤثرة لا يمكن تجاهلها، بل إنها تفوقت على القوى القائمة لتصبح القوة المهيمنة آنذاك، إنها دولة التتار أو المغول، التي نشأت في بدايات القرن السابع الهجري، من قلب منغوليا الواقعة شمال الصين، وكان مؤسس هذه الدولة هو القائد المعروف بـ «جنكيز خان»[4]، وقد استخدم ابن كثير[5] في كتابه البداية والنهاية

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص67.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج1، ص 7.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 87.
(4) لفظ جنكيز خان : مشتقه من اللفظة الصينية المغولية تيشنغ ومعناها القوي، وقيل انها لفظه اوريغورية مكونه من مقطعين الاولى جنك بمعنى قوي، والثاني جيز بمعنى جبار فيكون معنى اللفظ الاجمالي، الشديد القوي او الجبار، طقوش : محمد سهيل، تاريخ المغول العظام والايلخانيين، بيروت ، دار النفائس، دت، ص 32.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 44.

مصطلح «التتار» للإشارة إلى المغول، حيث قال: «**وفيها كان ابتداء ملك جنكيز خان ملك التتار، عليه من الله ما يستحقه**»، مما يدل على أن ابن كثير لم يُفرّق في التسمية بين التتار والمغول، كما هو شائع في بعض المصادر الإسلامية في العصور الوسطى، حيث استُخدمت الكلمتان للدلالة على القوم الذين غزوا العالم الإسلامي بقيادة جنكيز خان وخلفائه[1] وقد روى ابن كثير ظهور التتار عن هذا الظهور بعين المؤرخ المسلم الذي يرى في أحداث التاريخ تجليات لتدبير الله وحكمته، إذ يربط بين حركة الأمم وسنن الله في الكون، وقد عبّر عن ذلك بقوله: ما نصه: «**ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال سبط ابن الجوزي في مرآته: فِي لَيْلَةِ السَّبْتِ سَلْخِ الْمُحَرَّمِ هَاجَتِ النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ وَمَاجَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَتَطَايَرَتْ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ يَمِينًا وَشِمَالًا، قَالَ: وَلَمْ يُرَ مِثْلُ هَذَا إِلَّا فِي عَامِ المبعث.... وفيها كان ابتداء ملك جنكيز خان ملك التتار، عليه من الله ما يستحقه، وهو صاحب الباسق وضعها ليتحاكموا إليها - يعني التتار ومن معهم مِنْ أُمَرَاءِ - التُّرْكِ مِمَّنْ يَبْتَغِي حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ وهو والد تولى، وجد هولاكو بْنِ تُولِي**»[1]، ومع ان الاتراك والمغول وشعبهم يتشابهون وأطلق عليهم في الاصل لقب واحد فان المغول صنف من الاتراك وبينهم تفاوت واختلاف شاسع [2].

وعند تتبّع جذور الظاهرة المغولية، يروي ابن كثير في كتابه البداية والنهاية أن سنة 617هـ شكّلت بداية الظهور الحقيقي للتتار بقيادة جنكيز خان (تيموجين)، ويصف هذا الحدث بلغة دينية حادة تعبّر عن هول المصيبة وشدّة البلاء، حيث قال ما نصه: «**ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة، في هذه السنة عمّ البلاء وعظم العزاء بجنكزخان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين**».»[3]

ويُضيف ابن كثير في البداية والنهاية أن البلاء الذي جاء به التتار قد عمّ وانتشر من أقصى بلاد الصين حتى بلغ العراق وما جاورها، مشيرًا إلى أن المغول في سنة 617هـ استطاعوا السيطرة على معظم الممالك الإسلامية باستثناء العراق والجزيرة والشام ومصر، وقد وثّق المجازر التي ارتكبوها بحق المسلمين وغيرهم، قائلاً: «**لم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال**».»[4]

وعند حديثه عن وفاة جنكيز خان سنة 624هـ، أشار ابن كثير إلى مكانته بين التتار قائلاً: **ومن تُوفي في هذه السنة من الأعيان: جنكيز خان، السلطان الأعظم عند التتار، وَالِدُ مُلُوكِهِمُ الْيَوْمَ، ينتسبون إليه ومن عظم القان**»[5].

وأوضح أنه واضع شريعتهم المعروفة بـ(الياسا)، وهي القوانين التي يحتكمون إليها ويحكمون بها، مؤكداً أن أكثر هذه القوانين تخالف شرائع الله تعالى وكتبه السماوية، إذ إنها من اقتراحه الشخصي، واتبعوه عليها من بعده في قوله ما نصه: «**وهو الذي وضع لهم السياسا الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا، وَيَحْكُمُونَ بِهَا، وَأَكْثَرُهَا مُخَالِفٌ لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شئ اقْتَرَحَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَتَبِعُوهُ**

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 44.
(2) الهمذاني: رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، تاريخ المغول، تحقيق يحيى الخشاب، ترجم ونقل الى العربية، محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، المجلد الثاني، ج1، ص 212.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 103.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 103.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص137.

فِي ذَلِكَ»[1]، ويذكر ابن كثير في كتابه ان والدة جنكيزخان زعمت انه ولد من شعاع الشمس، ويذكر ابن كثير أنه اطلع على مجلد ألّفه الوزير علاء الدين الجويني في بغداد يتناول سيرة جنكيز خان، وقد تضمن هذا المجلد وصفًا لصفاته من حيث العقل السياسي، والكرم، والشجاعة، وحسن التدبير في شؤون الملك والرعية، وخوض الحروب في قوله: «**وكانت تزعم أمه أنها حملته مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ، فَلِهَذَا لَا يُعْرَفُ لَهُ أَبٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَجْهُولُ النَّسَبِ**»[2].

ويُروى أن جنكيز خان بدأ حياته مقربًا من الملك أوزبك خان، وكان شابًا حسن الهيئة يُعرف في البداية باسم «**تمرجي**»[3]، **ثم عندما علت منزلته سمّى نفسه «جنكيز خان»** [4].

ويشير ابن كثير إلى **اطّلاعه على مجلد ألّفه الوزير علاء الدين الجويني** في بغداد، خُصِّص لترجمة سيرة جنكيز خان، وقد تضمّن هذا المجلد عرضًا لجوانب متعددة من شخصية جنكيز خان، بقوله: «**وَقَدْ رَأَيْتُ مُجَلَّدًا جَمَعَهُ الْوَزِيرُ بِبَغْدَادَ عَلَاءُ الدِّينِ الْجُوَيْنِيُّ فِي تَرْجَمَتِهِ فَذَكَرَ فِيهِ سِيرَتَهُ**»[5].

وقد أورد ابن كثير في موضع آخر نقلاً عن الوزير علاء الدين الجويني مقتطفات من «الياسا»، مشيرًا إلى بعضٍ مما ورد فيها بقوله...«**أَنَّهُ مَنْ زَنَا قُتِلَ، مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَاطَ قُتِلَ، وَمَنْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ قُتِلَ، وَمَنْ سَحَرَ قُتِلَ، وَمَنْ تَجَسَّسَ قُتِلَ، وَمَنْ دَخَلَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فَأَعَانَ أَحَدَهُمَا قُتِلَ، وَمَنْ بَالَ فِي الْمَاءِ الْوَاقِفِ قُتِلَ، وَمَنِ انْغَمَسَ فِيهِ قُتِلَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَسِيرًا أَوْ سَقَاهُ أَوْ كَسَاهُ بِغَيْرِ إِذْنِ أَهْلِهِ قُتِلَ، وَمَنْ وَجَدَ هارباً ولم يرده قتل، ومن أطعم أسيراً أو رَمَى إِلَى أَحَدٍ شَيْئًا مِنَ الْمَأْكُولِ قُتِلَ، بَلْ يُنَاوِلُهُ مِنْ يَدِهِ إِلَى يَدِهِ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَحَدًا شَيْئًا فَلْيَأْكُلْ مِنْهُ أَوَّلًا وَلَوْ كان المطعوم أميراً لا أسيراً، وَمَنْ أَكَلَ وَلَمْ يُطْعِمْ مَنْ عِنْدَهُ قُتِلَ، وَمَنْ ذَبَحَ حَيَوَانًا ذُبِحَ مِثْلَهُ بَلْ يَشُقُّ جَوْفَهُ وَيَتَنَاوَلُ قَلْبَهُ بِيَدِهِ يَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَوْفِهِ أَوَّلًا**»[6].

وقد روى المؤرخ ابن كثير في البداية والنهاية عن حدثٍ عظيمٍ شهدته الأمة الإسلامية في سنة 616هـ، تمثل في ظهور جنكيزخان وعبور التتار نهر جيحون نحو بلاد المسلمين، واعتبره من أوائل الفتن العظيمة التي أصابت الأمة في تلك المرحلة، حيث قال ما نصه: «**ظهور جنكيزخان وعبور التتار نهر جيحون، وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكيزخان من بلادهم**».»[7].

ويروي ابن كثير في كتابه البداية والنهاية أنه في السنة نفسها دخل التتار بقيادة ملكهم جنكيزخان بلاد ما وراء النهر، بعد أن اجتازوا نهر جيحون، مشيرًا إلى أن هذا الحدث شكّل بداية الاجتياح المغولي لأراضي المسلمين في خراسان وما بعدها، ويذكر أن أصل التتار يعود إلى جبال طمغاج[8]،

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص138.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص138.
(3) تمرجي: تعني الحداد، تسمية تطلق على جنيكيز خان وسبب ذلك انه كان يتردد الى مدينة ايدرماق وصحب منها رجلا حداد فتعلم منه عمل نصول السهام، فكان يأخذ منه الحديد ويعود الى اهله فيصنع نصول السهام؛ ابن ايبك الدواداري : ابو بكر عبد الله بن ايبك (ت: بعد 736هـ) : كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1982م، ج7، ص231.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية : ج13، ص138.
(5) ابن كثير: البداية والنهاية : ج13، ص138.
(6) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص139.
(7) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.
(8) طمغاج : مدينة مشهورة كبيرة من بلاد الترك في الصين بينها وبين تركستان ستة اشهر ذات قرى كثيرة وقراها بين جبلين في مضيق لاسبيل اليها الا من ذلك المضيق

وهي منطقة جبلية تقع في أطراف الصين، ويُقصد بها غالبًا مناطق منغوليا وما جاورها، بقوله «**وَكَانُوا يَسْكُنُونَ جِبَالَ طَمْغَاجَ مِنْ أَرْضِ الصِّينِ**»[1].

ويروي عن تنوع قبائل التتار (المغول)، ويُبرز ما بينهم من فروقات لغوية وثقافية، ولكنهم كانوا موحدين تحت زعامة جنكيزخان بقوله «**وَلُغَتُهُمْ مُخَالِفَةٌ لِلُغَةِ سَائِرِ التَّتَارِ**»[2].

و ان هؤلاء القوم كانوا من أشجع التتار، وأكثرهم صبراً وجلداً في الحروب، وقد أثبتت الأيام صدق هذا القول لما أحدثوه من خراب «**وَهُمْ مِنْ أَشْجَعِهِمْ وَأَصْبَرِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ**»[3].

وقد نقل ابن كثير عن الوزير علاء الدين الجويني وصفًا لجملةٍ من العادات والتقاليد التي كان يتبعها التتار، مما ورد في بعض مواد «الياسا». ومن أبرز تلك الآداب: وجوب الطاعة المطلقة للسلطان بحسب الاستطاعة، وقيامهم بعرض أبكارهم الجميلات عليه ليختار منهن لنفسه أو لمن يشاء من خاصته، كما اعتادوا مخاطبة الملك باسمه المباشر دون ألقاب ، كما لا يقومون بغسل ثيابهم إلا بعد أن يظهر اتساخها مشيرًا إلى بعضٍ مما ورد فيها بقوله : «**ومن آدابهم: الطاعة للسلطان غَايَةَ الِاسْتِطَاعَةِ، وَأَنْ يَعْرِضُوا عَلَيْهِ أَبْكَارَهُمُ الْحِسَانَ لِيَخْتَارَ لِنَفْسِهِ وَمَنْ شَاءَ مِنْ حَاشِيَتِهِ مَا شَاءَ مِنْهُنَّ، وَمِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يُخَاطِبُوا الْمَلِكَ بِاسْمِهِ، وَمَنْ مَرَّ بِقَوْمٍ يَأْكُلُونَ فَلَهُ أَنْ يأكل معهم من غير اسْتِئْذَانٍ وَلَا يَتَخَطَّى مَوْقِدَ النَّارِ وَلَا طَبَقَ الطَّعَامِ، وَلَا يَقِفُ عَلَى أُسْكُفَّةِ الْخَرْكَاهْ وَلَا يَغْسِلُونَ ثِيَابَهُمْ حَتَّى يَبْدُو وَسَخُهَا، وَلَا يُكَلِّفُونَ الْعُلَمَاءَ مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ شَيْئًا مِنَ الْجِنَايَاتِ، وَلَا يَتَعَرَّضُونَ لِمَالِ مَيِّتٍ**»[4].

عاشراً: الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي كما صوره ابن كثير في كتابه البداية والنهاية:

ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية ؛ أنه في عام 611هـ، أرسل السلطان خوارزم شاه أحد أمرائه المقربين، الذي كان سابقًا يشغل منصبًا عسكريًا، لقيادة حملة عسكرية ناجحة استهدفت عدة مناطق وبفضل تلك الحملة، تمكن الأمير من السيطرة على إقليم كرمان ومكران، وامتد نفوذ السلطنة حتى مشارف بلاد السند، حيث أقيمت له الخطبة في تلك المناطق، مما كان دلالة واضحة على بسط سلطته عليها. ومن جهة أخرى، كان خوارزم شاه يتجنب الاصطفاف في مناطق بعيدة، ويفضل البقاء في نواحي سمرقند، تحسبًا من هجمات التتار، وخاصة من جانب كشلي خان[5] .

إذ كانت تلك المناطق المحاذية لمواطن التتار عرضةً لغزو مفاجئ[6]، وفي سياق آخر، يذكر ابن

ولايمكن الدخول اليها: للمزيد: ينظر: القزويني: زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت : 682هـ) : اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ج1، ص 411 .

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.

(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.

(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.

(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص139.

(5) كشلي خان : ويقال كشلو خان واسمه بالأصل كوجلك وهو ابن زعيم النايمان تايانك خان كان والده من اشهر ملوك الترك : للمزيد ينظر : ابو الفداء: عماد الدين اسماعيل بن علي المؤيد صاحب حماة (ت: 732هـ) : المختصر في اخبار البشر، ط1، المطبعة الحسينية، القاهرة، 1973م، ج3، ص 110 ؛ ابن فضل العمري : احمد بن يحيى القرشي العدوي (ت : 749هـ): مسالك الابصار في ممالك الامصار، ط1، ابو ظبي، المجمع الثقافي، 2002م، ج27، ص237 ؛ الطائي: سعاد حسن، دراسات في تاريخ الترك والمغول، ط1، مكتبة عدنان، بغداد، 2015م، ص194 .

(6) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 80.

كثير كيف تمكن خوارزم شاه من فرض سيطرته على عدد من الممالك الواقعة في تلك الأنحاء، ودخل في صراع مع مملكة الخطا، وكذلك مع التتار بقيادة كشلي خان، الذي كانت مملكته تجاور أراضي الصين. ومع الضغط المتزايد من قبل التتار، وجه ملك الخطا رسالة إلى خوارزم شاه يطلب فيها دعمه، محذرًا إياه من أن انتصار التتار عليه سيجعلهم أقرب إلى حدود دولته، وفي المقابل، بادر التتار أيضًا بمخاطبة خوارزم شاه، يدعونه إلى التحالف معهم ضد الخطا، باعتبار أن الخطا يمثلون عدوًا مشتركًا[1].

فأظهر خوارزم شاه حيادًا ظاهريًا، وردّ على كلا الطرفين بكلمات مطمئنة، لكنه حضر المعركة التي نشبت بينهما من دون أن يشارك، مكتفيًا بمراقبة سير المعركة من موقع منفصل وقد انتهت المواجهة بانتصار التتار وهزيمة ساحقة لجيش الخطا. غير أن التتار لم يلتزموا بالعهود التي سبق أن قطعوها مع خوارزم شاه، مما أدى إلى توتر شديد في العلاقات بين الطرفين، وتهديد بنشوب حرب مباشرة، وبسبب هذا التهديد، شعر خوارزم شاه بالخطر، فقام بإخلاء وتخريب عدد من المناطق القريبة من حدود كشلي خان، خشية أن تقع في أيدي التتار، كما يروي ابن كثير: «**وخاف منهم خوارزم شاه وخرَّب بلادًا كثيرة متاخمة لبلاد كشلي خان خوفًا عليها أن يملكها.**»[2].

ويروي ابن كثير أن القصة بدأت بإرسال جنكيزخان قافلة تجارية ضخمة إلى بلاد خوارزم شاه لشراء الثياب، في خطوة كانت في البداية تمثل نوعًا من العلاقات السلمية بين الطرفين في البداية، ويذكر أن السبب في دخولهم نهر جيحون كان إرسال جنكيزخان تجارًا معه ومعهم أموالٌ كثيرة، قائلاً: «**وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكيزخان بعث تجارًا له ومعهم أموالٌ كثيرة...**»[3].

ويروي أن نائب خوارزم شاه، الذي ربما كان والياً أو أمير منطقة، شاهد الأموال التي كانت مع التجار الذين أرسلهم جنكيزخان، فطمع بها، وأرسل إلى السلطان خوارزم شاه ليخبره بذلك، فكان الرد من السلطان بأن يتم قتل التجار وأخذ ما معهم من الأموال، مما أدى إلى تصاعد الأزمة بشكل كبير **قائلاً**: «**فَكَتَبَ نَائِبُهَا إِلَى خُوَارَزْمَ شَاهْ...**»[4].

ففعل ذلك، فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه قتلُ التجار كان سببًا مباشرًا في نشوب الحرب، فقد اعتبر جنكيزخان ذلك إهانة وسفكًا للدماء بلا وجه حق، فتوعد بالانتقام[5].

ويرى المؤرخ ابن كثير، أن ما فعله خوارزم شاه كان خطأً فادحًا، إذ تسبب في استجلاب عدوٍ شرسٍ على الأمة الإسلامية، ويُضيف ابن كثير في البداية والنهاية أنه «**ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلاً جيدًا**»، في إشارة إلى النتائج الكارثية التي ترتبت على هذا الفعل.»[6]

ويشير ابن كثير إلى أن بعض مستشاري خوارزم شاه حثوه على مهاجمة التتار، وربما كان ذلك من قلة الحكمة في اتخاذ القرار، ويقول ابن كثير: «**فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم**»، وهي الخطوة التي أدت إلى وقوع اجتياح واسع ومدمر، جعل الأمة الإسلامية تواجه خطرًا عظيمًا[7].

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 58.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 58.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.
(6) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.
(7) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص98.

وقد ذكر ابن كثير في سياق حديثه عن الغزو المغولي وسيرة جنكيزخان ما يلي: «**ثم نشبت الحرب بينه وبين علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه، صاحب بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وغيرها من الأقاليم، فكانت الغلبة لجنكيزخان، حيث قهره وكسره وسلبه، واستحوذ على جميع بلاده بنفسه وبأولاده، وذلك في أيسر مدة.**» و يعكس تصوير ابن كثير لقوة جنكيزخان العسكرية وسرعة انتشاره، ويبيّن مدى الضعف والتفكك الذي كانت تعاني منه الدولة الخوارزمية في مواجهة الغزو المغولي[1]، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية، فإن بداية ملك جنكيزخان كانت في سنة 599 هـ، حيث بدأ بتوسيع إمبراطوريته في آسيا الوسطى، أما الحرب التي خاضها مع خوارزم شاه، فقد بدأت تقريبًا في سنة 616 هـ وكانت من أبرز الحروب في تاريخه، حيث قضى على قوات خوارزم شاه بشكل حاسم واستولى على أراضيه، وفيما يتعلق بـ خوارزم شاه، فقد مات في سنة 617 هـ ، بعد أن هُزم أمام المغول وتعرضت إمبراطوريته للدمار الشامل[2] .

كما يذكر ابن كثير في البداية والنهاية، فإن السبب الرئيسي الذي أدى إلى الصراع بين جنكيزخان وخوارزم شاه كان حادثة وقعت عندما أرسل جنكيزخان مجموعة من التجار المغول محملين بالبضائع ، ولكنهم تعرضوا للقتل من قبل أحد نُوَّاب خوارزم شاه في تلك المنطقة، وكان النائب هذا هو والد زوجة كشلي خان، بعد هذا الحدث، أرسل جنكيزخان رسالة إلى خوارزم شاه يسأله إن كان هذا الهجوم قد تم بموافقته أو أنه لم يكن على علم به، وكان رد خوارزم شاه نفيًا، حيث أنكر علمه بالحادث[3] .

ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية كيف أن جنكيزخان أرسل رسالة إلى خوارزم شاه ليُعبّر عن استيائه من تصرف نائبه الذي قتل التجار المغول الذين كانوا في مهمة تجارية، وقد أوضح جنكيزخان في رسالته أن قتل التجار يتعارض مع العرف المتبع بين الملوك، حيث يعتبر التجار من عمَّار الأقاليم ومُساهمين في الاقتصاد وتبادل الثروات، وأنهم لا يُقتلون لأنهم يحملون هدايا وتحفًا للملوك ويقول ابن كثير عن الرسالة مانصه: «**أَرْسَلَ إِلَيْهِ: مِنَ الْمَعْهُودِ مِنَ الْمُلُوكِ أَنَّ التُّجَّارَ لَا يُقْتَلُونَ لِأَنَّهُمْ عِمَارَةُ الْأَقَالِيمِ، وَهُمُ الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التُّحَفَ وَالْأَشْيَاءَ النَّفِيسَةَ، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ التُّجَّارَ كَانُوا عَلَى دِينِكَ فَقَتَلَهُمْ نَائِبُكَ، فَإِنْ كَانَ أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك ، فَلَمَّا سَمِعَ خُوَارَزْمُ شَاهْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ جنكيزخان لَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ سِوَى أَنَّهُ أَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ فَأَسَاءَ التَّدْبِيرَ، وَقَدْ كَانَ خَرِفَ وَكَبُرَتْ سِنُّهُ، وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ « اتْرُكُوا التُّرْكَ ما تركوكم «فلما بلغ ذلك جنكيزخان تَجَهَّزَ لِقِتَالِهِ وَأَخْذِ بِلَادِهِ، فَكَانَ بِقَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ يُسْمَعْ بِأَغْرَبَ مِنْهَا وَلَا أَبْشَعَ**»[4] .

ثم دخلت سنة 625 هـ، حيث كانت هناك حروب كثيرة بين جلال الدين والتتار، وكسروه عدة مرات، إلا أنه في النهاية هزمهم هزيمة كبيرة وقتل منهم أعدادًا لا تُحصى من الناس وكان هؤلاء التتار قد عصوا وتمردوا على جنكيزخان، فكتب جنكيزخان إلى جلال الدين قائلاً: «**إن هؤلاء ليسوا منا، ونحن أبعدناهم، ولكن سترى منا ما لا قِبل لك به.**»[5]

ذكر ابن كثير في سنة 628 هـ، أن خبر جلال

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص138.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص138.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص139.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص140.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص143.

الديـن انقطـع، فلـم يُعلـم أيـن ذهـب أو مـا الـذي حـدث لـه، وقـد تمكّـن التتـار مـن السـيطرة عـلى النـاس في سـائر البـلاد، فلـم يكـن هنـاك مـن يسـتطيع أن يوقفهـم أو يردعهـم، ثـم أضـاف ابـن كثـير أن هـذه كانـت طامـة كـبرى وداهيـة عظيمـة، معبّرًا عـن قسـوة الموقـف وحجـم الدمـار الـذي وقـع بسـبب غـزو التتـار قائـلاً مانصـه : «**وَانْقَطَعَ خَبَرُ جَلَالِ الدِّينِ فَلَا يُدْرَى أَيْنَ سَلَكَ، وَلَا أَيْنَ ذَهَبَ، وَتَمَكَّنَتِ التَّتَارُ مِنَ النَّاسِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَمْنَعُهُمْ وَلَا مَنْ يَرْدَعُهُمْ، وَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى الْوَهْنَ وَالضَّعْفَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنْهُمْ، كَانُوا كثيراً يَقْتُلُونَ النَّاسَ فَيَقُولُ الْمُسْلِمُ: لَا بِاللهِ، لَا بِاللهِ، فَكَانُوا يَلْعَبُونَ عَلَى الْخَيْلِ وَيُغَنُّونَ وَيُحَاكُونَ النَّاسَ لَا بِاللهِ لَا بِاللهِ، وَهَذِهِ طَامَّةٌ عُظْمَى وَدَاهِيَةٌ كُبْرَى، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**»[1] .

احدى عشر: استيلاء المغول على المدن الإسلامية في كتاب البداية والنهاية لابن كثير:

1 – بخارى[2] : بعـد أن اسـتولى التتـار عـلى أمـوال المسـلمين وسـبوا ذراريهـم وأطفالهـم، هـبّ المسـلمون للـرد عليهـم وقـد أصابتهـم النكبـة، فاندلعـت بـين الطرفـين معركـة ضاريـة اسـتمرت أربعـة أيـام مـن القتـال العنيـف، وُصِـف بأنـه مـن أعنـف المعـارك التـي لم يُسـمع بمثلهـا مـن قبـل، سـقط عـدد كبـير مـن القتـلى في صفـوف الفريقـين، حتـى إن الخيـول كانـت تزلَـق مـن كثـرة الدمـاء، وقـد بلـغ عـدد القتـلى مـن المسـلمين قرابـة عشريـن ألفًـا، أمـا خسـائر التتـار فكانـت مضاعفـة وفي نهايـة المطـاف، توقّـف القتـال بعـد أن تراجـع كل طـرف إلى بـلاده، فلجـأ خـوارزم شـاه وأتباعـه إلى مدينتـي بخـارى وسـمرقند، حيـث عمـل عـلى تحصينهـا وأبقـى فيهـا عـددًا كبـيرًا مـن المقاتلـين اسـتعدادًا لأي هجـوم محتمـل[3] .

بعـد اسـتيلاء المغـول عـلى اتـرار توجهـت عسـاكرهم نحـو مدينـة بخـارى فقـد اتجهـت جيـوش التتـار بقيـادة جنكيـز خـان نحـو مدينـة بخـارى، وكان فيهـا آنـذاك نحـو عشريـن ألـف مقاتـل فـرض جنكيـز خـان الحصـار عـلى المدينـة مـدة ثلاثـة أيـام، وخـلال ذلـك طلـب سـكانها الأمـان منـه، فاسـتجاب لطلبهـم ظاهريًـا ودخـل المدينـة متظاهـرًا بحسـن النيـة، مسـتخدمًا المكـر والخـداع، وقـد اورد ابـن كثـير[4] بقولـه مانصـه «**فَقَصَدَتِ التَّتَارُ بُخَارَى وَبِهَا عِشْرُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ فَحَاصَرَهَا جِنْكِزْخَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَهْلُهَا الْأَمَانَ فَأَمَّنَهُمْ وَدَخَلَهَا فَأَحْسَنَ السِّيرَةَ فِيهِمْ مَكْرًا وَخَدِيعَةً**».

اما قلعـة بخـارى واصلـت القتـال وحـاصر المغـول القلعـة مـدة 10 يومـاً وقـد ابـدوا بسـالة شـديدة في الدفـاع عنهـا وقتـل المغـول كل مـن قاومهـم وفي نهايـة المطـاف اسـتطاع المغـول دخولهـا والسـيطرة عليهـا بقول ابـن كثـير[5]، مانصـه: «**وَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ فَحَاصَرَهَا**

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص150.
(2) بخـارى تُعـد مـن أعظـم وأشـهر مـدن مـا وراء النهـر، وتمتـاز بمكانتهـا الجغرافيـة والعلميـة. يُمكـن الوصـول إليهـا مـن جهـة «آمـل الشـط»، وتفصلهـا عـن نهـر جيحـون مسـافة تُقـدّر بيومـين سـيرًا في هـذا الاتجـاه. كانـت بخـارى قاعـدة لحكـم الدولـة السـامانية، واسـتمرت عـلى هـذا الحال حتـى عـام 87 هـ، حـين قـاد القائـد قتيبـة بـن مسـلم الباهـلي حملـة عـلى خراسـان، فعبـر نهـر جيحـون وحـاصر بخـارى حتـى فتحهـا، فأصبحـت في حكـم المسـلمين وقـد اشـتهرت بخـارى بأنهـا أنجبـت عـددًا كبـيرًا مـن العلـماء وأئمـة الإسـلام في مختلـف العلـوم والفنـون، مـن أبرزهـم: الإمـام محمـد بـن إسـماعيل البخـاري، الملقـب بإمـام أهـل الحديـث وصاحـب «الجامـع الصحيـح» و«التاريـخ : للمزيـد : ينظـر : ياقـوت الحمـوي : معجـم البلـدان، ج1، 355–354.

(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 99.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 99.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 99.

وَاسْتَعْمَلَ أَهْلَ الْبَلَدِ فِي طم خندقها وكانت التَّتَارُ يَأْتُونَ بِالْمَنَابِرِ وَالرَّبَعَاتِ فَيَطْرَحُونَهَا فِي الْخَنْدَقِ يطمونه بها ففتحوها قَسْرًا فِي عَشَرَةِ أَيَّامٍ، فَقَتَلَ مَنْ كَانَ بِهَا».

ثم عادوا إلى المدينة نفسها، فاستولوا على أموال التجار ووزعوها على جنودهم، وأطلقوا العنان لأعمال القتل والنهب، فقتلوا عددًا لا يحصيه إلا الله، وسبوا النساء والأطفال، وارتكبوا الفواحش بهم أمام ذويهم. فقاوم بعض السكان دفاعًا عن أعراضهم حتى لقوا حتفهم، فيما أُسر آخرون وتعرضوا لشتى صنوف العذاب، امتلأت المدينة بالبكاء والعويل من النساء والأطفال والرجال، قبل أن يقوم التتار بإشعال النار في منازل بخارى ومدارسها ومساجدها، حتى أُحرقت تمامًا وتحولت إلى أنقاض وخراب. وبعد هذا الدمار الشامل، غادرت جيوش التتار المدينة متوجهة نحو سمرقند[1].

فذكر ابن كثير[2]، ذلك قائلا مانصه «**ثُمَّ أَلْقَتِ التَّتَارُ النَّارَ فِي دُورِ بُخَارَى وَمَدَارِسِهَا وَمَسَاجِدِهَا فَاحْتَرَقَتْ حَتَّى صَارَتْ بِلَاقِعَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، ثُمَّ كَرُّوا رَاجِعِينَ عَنْهَا قَاصِدِينَ سمرقند.**

2- **سمرقند**[3] : يتحدث ابن كثير عن دخول المغول الى سمرقند بعد سيطرتهم على بخارى ووضعهم خطة عسكرية للاستيلاء عليها بعد أن بسط المغول سيطرتهم على مدينة بخارى، توجه جنكيز خان بجيوشه إلى مدينة سمرقند، واضعًا خطة محكمة للسيطرة عليها. فحاصر المدينة في اليوم الأول من شهر المحرم من سنة 617 هـ ، وكانت تضم ما يقرب من خمسين ألف مقاتل من رجالها. ومع ذلك، فإن هؤلاء لم يُظهروا مقاومة تُذكر، في حين خرج لملاقاته سبعون ألفًا من عامة الناس، قُتلوا جميعًا في وقت قصير عند ذلك، سلّم جيش سمرقند النظامي نفسه إلى المغول، فأخذ جنكيز خان منهم أسلحتهم وجميع وسائل الدفاع، ثم غدر بهم فقتلهم في ذلك اليوم وحسب ما ذكره: «**ثم سار إلى سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هَذِهِ السَّنَةِ وَبِهَا خَمْسُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ مِنَ سمرقند فَنَكَلُوا وَبَرَزَ إِلَيْهِمْ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْعَامَّةِ فَقُتِلَ الْجَمِيعُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَلْقَى إِلَيْهِ الخمسون ألف السَّلَمَ فَسَلَبَهُمْ سِلَاحَهُمْ وَمَا يَمْتَنِعُونَ بِهِ، وَقَتَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ**»[4] .

واستباح المدينة، فعمّ فيها القتل والنهب والسبي. أُبيد معظم السكان، وسُلبت الأموال، وسُبيت النساء والأطفال، وأُضرمت النيران في المدينة حتى تحولت إلى أطلال مهجورة عبر عنها ابن كثير[5] بقوله: «**وَاسْتَبَاحَ الْبَلَدَ فَقَتَلَ الْجَمِيعَ وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ وَحَرَقَهُ وَتَرَكَهُ بِلَاقِعَ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَأَقَامَ لَعَنَهُ الله هنالك**».

وقد أقام جنكيز خان في سمرقند بعض الوقت، وأرسل من هناك سرايا إلى مناطق أخرى، «**فَأَرْسَلَ سَرِيَّةً إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَتُسَمِّيهَا التَّتَارُ الْمُغَرِّبَةَ**»[6] .

3- **مدينة مرو**[7] : وتوجه جنكيز خان إلى مدينة

(1) بن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 99.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 99.
(3) سمرقند، وتُلفظ بفتح أوّله وثانيه، وتُعرف أيضًا بالعربية باسم سَمران، هي مدينة مشهورة ومعروفة في بلاد ما وراء النهر. ويُقال إن تأسيسها يُنسب إلى الملك ذو القرنين، حيث بناها ضمن منشآته في تلك المناطق. تُعدّ سمرقند مركزًا مهمًا في إقليم الصُّغد، وتقع على الضفة الجنوبية لوادي الصُّغد، وتعلو عنه في الارتفاع، للمزيد: ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 246.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 104.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 104.
(6) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 105.
(7) مدينة مَرْو تُعدّ من الحواضر العلمية البارزة في بلاد ما وراء النهر، وقد انتسب إليها جمع من علماء الحديث ممن عرفوا بروايتهم وتوثيقهم؛ للمزيد: ينظر: ياقوت

مرو، وقد عسكر بظاهرها مع ما يقارب مائتي ألف مقاتل، فقاتله المسلمون قتالاً شديدًا لكنهم انهزموا، ثم حاصر المغول المدينة خمسة أيام، واستدرجوا نائبها بالخديعة ثم غدروا به وبأهل المدينة، فقتلوا وغنموا وسلبوا، وعذّبوهم، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان، وقد علق ابن كثير عليها قائلاً : «**قصدوا مدينة مرو مع جنكزخان فقد عَسْكَرَ بِظَاهِرِهَا نَحْوٌ مَنْ مِائَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَاقْتَتَلُوا مَعَهُ قِتَالًا عَظِيمًا حَتَّى انْكَسَرَ الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ثُمَّ حَصَرُوا الْبَلَدَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ وَاسْتَنْزَلُوا نَائِبَهَا خَدِيعَةً ثُمَّ غَدَرُوا بِهِ وَبِأَهْلِ الْبَلَدِ فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم وَعَاقَبُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، حَتَّى أَنَّهُم قَتَلُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعَمِائَةِ أَلْفِ إِنْسَانٍ**»[1] .

4- **مدينة بلخ**[2] : ومدينة بلخ فجهّز جنكيزخان جيشًا آخر نحو خراسان فحاصروا مدينة بلخ، فاضطر أهلها إلى الصلح معهم لتجنيب المدينة الدمار. يقول ابن كثير: «**وَجَهَّزَ جَيْشًا آخَرَ نَحْوَ خُرَاسَانَ فَحَاصَرُوا بَلْخَ فَصَالَحَهُمْ أَهْلُهَا، وَكَذَلِكَ صَالَحُوا مُدُنًا كَثِيرَةً أُخْرَى**[3]، لقد كان هذا الزحف المغولي كارثة تاريخية بكل المقاييس، لما خلفه من دمار شامل، وقتل جماعي، وسبي، وخراب طال المعالم العمرانية والعلمية والدينية في تلك المدن الإسلامية، وأوقع رعبًا شديدًا في نفوس الناس، حتى أضحت أخبارهم تتناقلها الألسن في سائر الأقطار الإسلامية. عبر عنها ابن كثير بقوله «**فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي اسْتَطَارَ شَرَرُهَا، وَعَمَّ ضَرَرُهَا، وَسَارَتْ فِي الْبِلَادِ كَالسَّحَابِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَإِنَّ قَوْمًا خَرَجُوا مِنْ أَطْرَافِ الصِّينِ، فَقَصَدُوا بِلَادَ تُرْكِسْتَانَ مِثْلَ كَاشْغَرَ**[4] **وَبَلَاسَاغُونَ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ مِثْلِ سمرقند وبخارا وَغَيْرِهِمَا، فَيَمْلِكُونَهَا**[5].

5- **نيسابور**[6] : وبعد مرو، سار المغول إلى نيسابور وكرروا فيها نفس المجازر التي وقعت في مرو، قتلاً وخرابًا وقد علق عليها قائلاً : **سَارُوا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فَعَلُوا بِأَهْلِ مَرْوَ**» [7] .

6- **مدينة طوس**[8] : بعد أن فرغ المغول من

الحموي : معجم البلدان، ج3، ص 263.

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 107.

(2) مدينة بلخ تُعدّ من أقدم وأهم مدن خراسان، وتقع في موقع متوسط منها. وتُقدّر المسافات منها إلى مختلف المدن والبلدان بما يقارب ثلاثين مرحلة في جميع الاتجاهات تقريبًا، للمزيد: ينظر: اليعقوبي: أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت بعد 292هـ): البلدان لليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ص 117

(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص .107

(4) كاشغر : تقع في وسط بلاد الترك وهي عبارة عن مدن وقرى يسافر اليها من سمر قند وتلك النواحي واهلها مسلمون ؛ للمزيد: ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 4، ص 430.

(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 103.

(6) وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة ومنبع العلماء لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة كانت مثلها، وكان المسلمون فتحوها في أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه، والأمير عبد الله بن عامر بن كريز في سنة 31 صلحا وبنى بها جامعا، وقيل إنها فتحت في أيام عمر، ﷺ، على يد الأحنف بن قيس للمزيد : ينظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج 5، ص331.

(7) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 107.

(8) تقع طوس في إقليم خراسان، وتفصلها عن نيسابور مسافة تُقدّر بنحو عشرة فراسخ، وقد فُتحت طوس في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وتُعدّ طوس من المدن ذات البُعد الديني والتاريخي، إذ تضم قبر الإمام علي بن موسى الرضا، عليه السلام، وقبر الخليفة العباسي هارون الرشيد وتوجد بين طوس ونيسابور بقايا قصر عظيم، يتميّز بارتفاع جدرانه وجودة بنائه، حتى قيل

استباحة نيسابور، توجهوا إلى مدينة طوس، حيث واصلوا نهجهم المدمر، فاقتحموا المدينة وقتلوا أهلها. ولم تقتصر أفعالهم على القتل والسلب، بل طالت معالمها الدينية والتاريخية؛ إذ قاموا بتخريب مشهد علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، الذي كان مقصدًا للزائرين ومحطّ توقير المسلمين، كما خرّبوا تربة الخليفة العباسي هارون الرشيد، فلم يتركوا فيها حجرًا على حجر، حتى تُركت خرابًا. وقد علق عن ذلك ابن كثير ان هذه الفاجعة قائلاً مانصه: «**ثُمَّ إِلَى طُوسَ فَقَتَلُوا وخربوا مشهد علي بن موسى الرضي سلام الله عليه وعلى آبائه، وخربوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خراباً.**»[1].

7- مدينة خوارزم[2] : ضمن حملاته التوسعية الدامية، أرسل جنكيزخان طائفة من جيشه إلى مدينة خوارزم، حيث فرضوا عليها حصارًا شديدًا استمر حتى تمكنوا من فتحها قهرًا. عقب ذلك، ارتكبوا مجزرة مروّعة في حق سكانها، فقتلوا من فيها قتلاً ذريعًا دون تمييز بين صغير وكبير، ثم نهبوا ممتلكات المدينة وسبوا أهلها، في صورة بشعة من صور العدوان، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أقدموا على تدمير الجسر الذي يحجز مياه نهر جيحون عن المدينة، ما أدى إلى غرق الدور وهلاك جميع سكانها الذين نجوْا من القتل، فكان مصيرهم الغرق، وقد وصف ابن كثير هذه الحادثة المؤلمة بقوله: «**وَأَرْسَلَ جِنْكِزْخَانُ طَائِفَةً أُخْرَى إِلَى مَدِينَةِ خُوَارَزْمَ فَحَاصَرُوهَا حَتَّى فَتَحُوا الْبَلَدَ قَهْرًا فَقَتَلُوا مَنْ فِيهَا قَتْلًا ذَرِيعًا، وَنَهَبُوهَا وَسَبَوْا أَهْلَهَا، وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون منها فَغَرِقَتْ دُورُهَا وَهَلَكَ جَمِيعُ أَهْلِهَا**»[3].

وقد وصف المؤرخ ابن كثير ؛ كيف أفاض ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في الحديث عن غزو المغول ، وأولاه عنايةً فائقة، إذ بسط القول فيه تفصيلًا بالغًا، وافتتحه بمقدمة مهيبة تؤكد فداحة ما وقع، فقال: «**هذا فصلٌ يتضمَّن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى، التي عجزت الليالي والأيام أن تأتي بمثلها، فهي عامة على الخليقة، وخاصة بالمسلمين.**» **ثم أردف معبّرًا عن مدى هول الواقعة بقوله: «ولو قال قائلٌ إنّ العالم منذ خلق الله آدم إلى يومنا هذا لم يُبتلَ بمثلها، لكان صادقًا، إذ لم تذكر كتب التواريخ حادثة تضاهيها أو تدانيها في شدتها وهولها.**»[4].

إنه لم يُرَ مثله في الإتقان والعلو؛ للمزيد : ينظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج 4، ص 49.

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 107.

(2) خوارزم: هي اسم يُطلق على ناحية واسعة، لا على مدينة بعينها، وتُعرف قصبتها الكبرى اليوم بـ«الجرجانية»، ويسميها أهلها «كركانج». وتُروى حكاية أسطورية عن أصل تسميتها، مفادها أن أحد الملوك نَفَى أربعمائة من خاصته إلى موضع ناءٍ خالٍ من العُمران، فاستقروا في موقع مدينة «كاث»، حيث عاشوا بصيد السمك والحطب، وقالوا لرسل الملك: «نشوي هذا بهذا»، أي السمك بالحطب ومن هنا جاء اسم «خوارزم»، من كلمتي «خوار» (اللحم) و**«رزم» (الحطب)**، ثم خفف اللفظ لاحقًا. ؛ للمزيد : ينظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص395

(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 107

(4) ابن الاثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت 630هـ) : الكامل في التاريخ : تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، 1997م، ج 10، ص 333 ؛ ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 103

اثنى عشر: استيلاء المغول على بغداد في كتاب البداية والنهاية لابن كثير:

يصف ابن كثير الدمشقي في كتابه الشهير» البداية والنهاية مشاهد الاجتياح المغولي لبغداد عام 656هـ، باعتبارها من أكثر الفواجع دموية في التاريخ الإسلامي، فقد ذكر ابن كثير أن التتار «**وَقَتَلُوا أَكْثَرَ أَهْلِهَا حَتَّى الْخَلِيفَةَ**»[1].

لم يكن ابن كثير مؤرخًا فحسب، بل كان فقيهًا ومفسرًا، ما جعله يُزاوج في عرضه بين السرد التاريخي والتأمل الديني والعبرة الأخلاقية ويظهر ذلك جليًا في عرضه لتاريخ المغول وغزوهم للعالم الإسلامي، لا سيما عند حديثه عن حادثة احتلال المغول لبغداد وما تلاه من أحداث جسام ؛ ويصور ذلك، ابن كثير في قوله مانصه: «**وَوَصَلَ بَغْدَادَ بِجُنُودِهِ الْكَثِيرَةِ الْكَافِرَةِ الْفَاجِرَةِ الظَّالِمَةِ الْغَاشِمَةِ، مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَأَحَاطُوا بِبَغْدَادَ من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بَغْدَادَ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ وَنِهَايَةِ الذِّلَّةِ**»[2].

مشيرًا إلى أن القتل استمر أربعين يومًا متواصلة منذ دخولهم في أواخر شهر المحرم بقوله مانصه: «**وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين صباحا**»[3].

كما يورد المؤرخ أرقامًا متضاربة لعدد الضحايا، تتراوح بين ثمانمائة ألف إلى مليوني قتيل، ما يعكس حجم الكارثة وهول المأساة التي حلّت بأهل المدينة، بقوله مانصه : «**وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاس فِي كَمِّيَّةِ مَنْ قُتِلَ بِبَغْدَادَ مِنَ المسلمين في هذه الوقعة فَقِيلَ ثَمَانُمِائَةِ أَلْفٍ، وَقِيلَ أَلْفُ أَلْفٍ وَثَمَانُمِائَةِ أَلْفٍ، وَقِيلَ بَلَغَتِ الْقَتْلَى أَلْفَيْ أَلْفِ نَفْسٍ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ**»[4].

وقد وصف مشهد الناجين الذين خرجوا من تحت الأنقاض بعد إعلان الأمان بقوله: «**ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كَأَنَّهُمُ الْمَوْتَى إِذَا نُبِشُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَا يَعْرِفُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ وَلَا الْأَخُ أَخَاهُ، وَأَخَذَهُمُ الْوَبَاءُ الشَّدِيدُ فَتَفَانَوْا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تَحْتَ الثَّرَى بِأَمْرِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الحسنى**» في إشارة إلى حجم الدمار النفسي والجسدي الذي أصاب السكان[5].

ويُلاحظ أن ابن كثير رغم أنه لم يكن معاصرًا للغزو، إلا أنه أجاد التعبير عن حجم الفاجعة بأسلوبه التاريخي القائم على التوثيق بالسنوات (الحوليات)، ففي بداية تأريخه لأحداث عام 657هـ كتب: «**ثُمَّ دَخَلَتْ سنة سبع وخمسين وستمائة اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ خَلِيفَةٌ**»[6]، وهي عبارة تختزل مدى الانهيار الذي أصاب الخلافة الإسلامية بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله، ورغم قوة وصف ابن كثير، إلا أن الباحث يلحظ الفارق بينه وبين المؤرخ المعاصر للأحداث ابن الأثير(ت: 630هـ)، الذي سجّل الوقائع من موقع الشاهد العياني، وأبدى مشاعر شخصية عميقة تجاه ما حدث، إذ يقول في مقدمة حديثه عن اجتياح التتار قائلاً مانصه : «**لَقَدْ بَقِيتُ عِدَّةَ سِنِينَ مُعْرِضًا عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ اسْتِعْظَامًا لَهَا، كَارِهًا لِذِكْرِهَا، فَأَنَا أُقَدِّمُ إِلَيْهِ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ أُخْرَى**»[7]، ويضيف بأسى: «**فَمَنِ الَّذِي**

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص233.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية، ج14، ص 25 ، ص 36، ص 214.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 235.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 235.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 236.
(6) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 249.
(7) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج10، ص333.

يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ نَعْيَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ»[1] .

ويُعد ابن الأثير من أبرز من عبّر عن حجم المصاب، حين قال إن ما جرى **«الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقّت الأيام والليالي عن مثلها»**، مؤكدًا أن العالم **«منذ خلق الله آدم»** لم يشهد كارثة مماثلة[2] .

وصوّر ابن كثير المشهد الدموي في بغداد قائلا **«دخل كثير من الناسِ في الآبار وأماكن الحشوش وقُنِيِّ الوسخ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون، وكان من الناس من يجتمعون في الحانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر أو بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي المكان، فيقتلونهم في الأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة»** [3].

ان ابن كثير لم يكن شاهد عيان لأحداث سقوط بغداد فهو هو اعتمد على روايات المؤرخين قبله ، فقصة السهم الذي أصاب الجارية هي رواية أقرب للعبرة منها للتأريخ الحرفي والهدف منها إيصال رسالة أن الغفلة والترف تعمي عن المصائب لكنها لا تعني أن كل تفاصيلها حقيقية بدقة، وقد يكون هناك توجه لتشويه صورة الخليفة المستعصم، وإظهاره بمظهر الطائش الفاقد للحس، كنوع من تحميله المسؤولية عن سقوط الخلافة، وهذا ليس غريبًا في الكتابات التاريخية، حيث يكون المؤرخ متأثرًا بميوله وأفكاره، وان المغول في تلك الحقبة كانوا خليطًا دينيًا: بعضهم وثني، وبعضهم اعتنق الإسلام أو النصرانية، ولا يمكن الجزم بصدقها وهنا يتحتم أن ننظر لهذه القصص بعين فاحصة، ونفهم الظروف التي دُوِّنت فيها كقوله مانصه : **«وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى أُصِيبَتْ جَارِيَةٌ كَانَتْ تَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ وَتُضْحِكُهُ، وَكَانَتْ مِنْ جملة حظاياه، وَكَانَتْ مُوَلَّدَةً تُسَمَّى عَرَفَةَ، جَاءَهَا سَهْمٌ مِنْ بَعْضِ الشَّبَابِيكِ فَقَتَلَهَا وَهِيَ تَرْقُصُ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ، فَانْزَعَجَ الْخَلِيفَةُ مِنْ ذَلِكَ وَفَزِعَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَأَحْضَرَ السَّهْمَ الَّذِي أَصَابَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ إِذَا أَرَادَ اللهُ إِنْفَاذَ قضائه وقدره أذهب من ذَوِي الْعُقُولِ عُقُولَهُمْ»**[4] .

لم يمض وقت طويل على دخول المغول بغداد، حتى أمر هولاكو بقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله، على الرغم من أنه قد منحه الأمان ووعده بالحفاظ على حياته، لكنه نقض عهده وغدر به. ولم يكتفِ المغول بقتل الخليفة فحسب، بل أقدموا على قتل نجليه: الأكبر أبو العباس أحمد، والأوسط أبو الفضل عبد الرحمن، كما أُسر الابن الأصغر مبارك، واعتُقلت بناته الثلاث: فاطمة، وخديجة، ومريم، إضافة إلى سبي عدد كبير من الأبكار من دار الخلافة، حيث قيل إن عددهن قارب الألف، في مشهد مأساوي يُجسد نهاية دولة عظيمة وقد نقل ابن كثير تفاصيل هذه الفاجعة بقوله: **«وَكَانَ قَتْلُ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَعْصِمِ بِاللهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ رَابِعَ عَشَرَ صَفَرٍ، وَعُفِيَ قَبْرُهُ، وَكَانَ عُمْرُهُ يَوْمَئِذٍ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَمُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ وَأَيَّامٌ، وَقُتِلَ مَعَهُ وَلَدُهُ الْأَكْبَرُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ، وَلَهُ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، ثُمَّ قُتِلَ وَلَدُهُ الْأَوْسَطُ أَبُو الْفَضْلِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَأُسِرَ وَلَدُهُ الْأَصْغَرُ مُبَارَكٌ، وَأُسِرَتْ أَخَوَاتُهُ الثَّلَاثُ: فَاطِمَةُ وَخَدِيجَةُ وَمَرْيَمُ، وَأُسِرَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ مِنَ الْأَبْكَارِ مَا يُقَارِبُ أَلْفَ بِكْرٍ فِيمَا قِيلَ وَاللهُ أَعْلَمُ،**

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج10، ص333.
(2) بن الأثير : الكامل في التاريخ : ج10، ص333.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 235.
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 233.

فَإِنَّا للهَّ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»[1].

وكذلك مانصه: «**وَكَانَ الرَّجُلُ يُسْتَدْعَى بِهِ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ من بنى العباس فيخرج بأولاده ونسائه فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى مَقْبَرَةِ الْخَلَّالِ، تُجَاهَ الْمَنْظَرَةِ فَيُذْبَحُ كَمَا تُذْبَحُ الشَّاةُ، وَيُؤْسَرُ مَنْ يَخْتَارُونَ مِنْ بَنَاتِهِ وَجَوَارِيهِ**»[2].

ولم يستطع هولاكو البقاء في بغداد لجوها الملوث بالجثث المتعفنة فرحل عنها في نفس العام بعد ان اوكل امرها الى الامير علي بهادر وكما ابقى في بلاد الشام قوة عسكرية تحت قيادة كتبغا لبسط سيطرة المغول عليها وعلى مصر ليتم بذلك خطة المغول التوسعية التي وضعها خان المغول الاعظم منكو[3].

ورغم تلك المآسي، فإن ابن كثير أرخ أيضًا لصفحة مشرقة في تاريخ المسلمين، تمثّلت في انتصارهم على التتار في معركة عين جالوت عام 658هـ، حيث كتب مبتهجًا: «**ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت، دخل دمشق في أبهة عظيمة، وفرح الناس به فرحاً شديداً، ودعوا له دعاء كثيراً**»[4]، في إشارة إلى الانبعاث من تحت الركام، واستعادة المسلمين لشيء من هيبتهم وكيانهم السياسي بعد سنوات من الانكسار والهزيمة.

وصوّر ابن كثير البشرى بالنصر على التتار وصلت بعد ثلاثة أيام فقط من المعركة، وهذا يعكس الأثر الكبير للانتصار وسرعة انتشاره، والتي كانت نقطة تحوّل حاسمة في تاريخ المسلمين، حيث تم فيها كسر شوكة المغول لأول مرة منذ بدء اجتياحهم الكاسح للعالم الإسلامي بقوله: «**وَقْعَةُ عَيْنِ جَالُوتَ اتفق وُقُوعُ هَذَا كُلِّهِ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَمَا مَضَتْ سِوَى ثَلَاثَةُ أَيَّام حَتَّى جَاءَتِ الْبِشَارَةُ بِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ على التتار بعين جالوت.**»[5]

استنتاج البحث:

من خلال دراسة روايات ابن كثير في البداية والنهاية حول اجتياح المغول للعالم الإسلامي، يتبين أن هذا الحدث كان من أكثر المحطات دموية وألماً في تاريخ الأمة الإسلامية، لما خلفه من دمار حضاري، واجتثاث سياسي، وخراب عمراني، ومأساة إنسانية شاملة. وقد سجل ابن كثير هذه الوقائع بلغة مؤلمة وحزينة، كأنه شاهد عيان، لما كان له من ولاء واضح للخلافة العباسية، وانتماء للثقافة الإسلامية التي دُمرت على يد الغزاة. ويتضح من النصوص أن:

1. المغول لم يميزوا في عدوانهم بين مدني وعسكري، فقد قتلوا الشيوخ والنساء والأطفال، وهدموا المساجد والمكتبات، وأحرقوا الدور، حتى غدت بغداد، عاصمة الخلافة، أثراً بعد عين.

2. أظهر هولاكو خيانة واضحة بقتل الخليفة المستعصم رغم منحه الأمان، وهو ما يكشف عن منهج المغول القائم على الخداع والغدر، بعيداً عن أي قيم أو أعراف.

3. عكست هذه الأحداث مدى الانهيار السياسي والعسكري للخلافة العباسية في أواخر عهدها، إذ لم تُبدِ بغداد أي مقاومة فعالة، مما سهل للمغول القضاء على مركز القرار الإسلامي دون عناء كبير.

4. سجّل ابن كثير تلك الفواجع بأسلوب يوثق الحقيقة التاريخية، ويحمل بين سطوره نداءً وعبرة

(1) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 236.
(2) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 236.
(3) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 236 .
(4) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 257.
(5) ابن كثير : البداية والنهاية : ج13، ص 255.

للأجيال القادمة، بأن الأمم لا تنهار إلا حينما تفقد وحدتها وقوتها الداخلية.

5. يرى ابن كثير ان السببً المباشر في إثارة المغول ودفعهم لغزو بلاد المسلمين، وذلك بسبب التصرفات الطائشة والغير المدروسة تجاه تجار المغول وسفرائهم، وهو ما أثار غضب جنكيز خان ودفعه إلى إرسال جيشه للانتقام، وقد انتقد ابن كثير هذه التصرفات، ، مما جلب على الأمة كارثة عظيمة تمثلت في الاجتياح المغولي.

6. ابن كثير لم يميز بين المغول والتتار في مؤلفاته التاريخية، بل كان يستخدم الاسمَين بشكل متبادل أو مجمع، وهذا يعود إلى أن المغول والتتار كانوا مرتبطين تاريخياً وجغرافياً، وكان يُنظر إليهم على أنهم جماعة واحدة أو متداخلة في الفترات التي تناولها ابن كثير.

المصادر :

1. ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي المؤيد صاحب حماة (ت : 732هـ) المختصر في اخبار البشر، (المطبعة الحسينية، القاهرة، 1973م).

2. ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: 630هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، 1997م) .

3. ابن أيبك الدواداري : ابو بكر عبد الله بن ايبك (ت : بعد 736هـ) : كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة، 1982م).

4. ابن حجر العسقلاني : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت : 852) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق :محمد عبد المعيد خان ، حيدر آباد، (مجلس دائرة المعارف، الهند، 1972 م).

5. الحسيني : شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي (ت : 765 هـ) : ذيل تذكرة الحفاظ . ط ،1 (بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998م) .

6. الداوودي: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت : 945هـ): طبقات المفسرين، (دار الكتب العلمية، بيروت : ، دت)

7. الدمشقي: عبد القادر بن محمد النعيمي (ت: 927هـ) ، الدارس في أخبار المدارس . تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، ط 1 (دار الكتب العلمية بيروت، 1990م)

8. الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت : 748 هـ): تذكرة الحفاظ، (دار التراث العربي، بيروت: ، 1958م) .

– الذهبي : معجم الشيوخ الكبير، تحقيق : محمد الحبيب الهيئة، (مكتبة الصديق، الطائف، 1988م).

9. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت : 911هـ) : ذيل طبقات الحفاظ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت).

10. ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت: 764هـ) : قوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس، (دار صادر، بيروت، 1973م).

11. ابن العماد الحنبلي : عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت :1089 هـ) : شذرات الذهب ، حققه: محمود الأرناؤوط، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1986م).

12. ابن فضل العمري : احمد بن يحيى القرشي العدوي (ت : 749هـ): مسالك الابصار في ممالك الامصار، ط1، (ابو ظبي، المجمع الثقافي، 2002م).

13. القزويني: زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت : 682هـ)، اثار البلاد واخبار العباد، (دار صادر، بيروت، د.ت)

14. ابن كثير : الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت :774 هـ): البداية والنهاية ، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، (دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1988م) .

15. المقريزي : أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت: 845هـ) : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، (منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م).

16. الهمذاني: رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ ، تاريخ المغول، تحقيق يحيى الخشاب، ترجم ونقل الى العربية، محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، (دار احياء الكتب العربية، القاهرة، المجلد الثاني).

17. ياقوت الحموي : شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت : 626هـ) : معجم البلدان، ط2، (دار صار، بيروت، 1995م) .

المراجع :

1. الطائي : سعاد حسن، دراسات في تاريخ الترك والمغول، (مكتبة عدنان، بغداد، 2015م).

2. عبد الواحد : مصطفى ، مقدمة تحقيق السيرة النبوية لابن كثير، (دار المعرفة ، بيروت: 1976م)

3. العزاوي: عبد الرحمن حسين، التاريخ والمؤرخون، (دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1993م).

4. كحالة : عمر رضا ، معجم المؤلفين ، (دار إحياء التراث، بيروت : ، د.ت)

5. طقوش : محمد سهيل، تاريخ المغول العظام والايلخانيين، (دار النفائس، بيروت، دت).

الدوريات :

1. أبو قمر : أحسان عبدالقادر: ابن كثير ومنهجه في كتاب البداية والنهاية: مجلة مؤتة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثامن والثلاثون، العدد الثالث، 2023م .